

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ يَبْنَىٰ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٥ ﴾

وحسين يُورد القرآن خطاب أب لابن نجد قوله ﴿ يَا بَنِيَّ ﴾ وهو خطابُ تحنينٍ ، ويدل على القرب من القلب^(١) ، و « بَنِي » تصغير « ابن » .
أما حين يأتي القرآن بحديث أب عن ابنه فهو يقول « ابني » مثل قول الحق سبحانه عن نوح يتحدث عن ابنه الذي اختار الكفر على الإيمان :

﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. (١٥) ﴾ [هود]

وكلمة « يا بني » بما فيها من حنان وعطف ؛ ستفيدنا كثيراً فيما سرف يأتي من مواقف يوسف ؛ ومواقف أبيه منه .

وقول يعقوب ليوسف « يا بني » يُفهم منه أن يوسف عليه السلام ما زال صغيراً ، فيعقوب هو الأصل ، ويوسف هو الفرع ، والأصل دائماً يعتلىء بالحنان على الفرع ، وفي نفس الوقت نجد أي أب يقول : مَنْ يَأْكُلْ لِقَمَتِي عَلَيْهِ أَنْ يَسْمَعَ كَلِمَتِي .

(١) كاد غلاماً يَكِيدُهُ كَيْدًا : خدعه ومكر به واحتمال لإسحاق الضرب به . والكيد مصدر ويطلق على العمل أو الوسيلة التي يبتدع بها الكائد ليتغلب على خصمه . [القاموس القويم : ١٨٠/٢] .

(٢) ورد هذا الخطاب في القرآن ٦ مرات في سورة هود ويوسف ولقمان في ثلاث آيات والصفات .

ولنظم أن التكون وما فيه وَمَنْ فِيهِ وَثِقَتُهُ أمام الله الطواصية والسجود استجابة لمراد الله فهو من الواردات .

وقول الأب : يا بني ، يفهم منه أن الابن ما زال صغيراً ، ليست له ذاتية منفصلة عن الأب ليقرر بها ما هو المناسب ، وما هو غير المناسب .

وحين يفرع يوسف مما يُزججه أو يُسقى إليه ؛ أو أى أمر مُعْضَل^(١) فهو يلجأ إلى مَنْ يحبه ؛ وهو الأب ؛ لأن الأب هو - الأقدر فى نظر الابن - على مواجهة الأمور الصعبة .

وحين روى يوسف عليه السلام الرؤيا لأبيه ؛ قال الأب يعقوب عليه السلام :

﴿ قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ۖ ۝٥ ﴾ [يوسف]

وتفهم من كلمة « رؤيا » أنها رؤيا منامية ؛ لأن الشمس والقمر والنجوم لا يسجدون لأحد ، وهذا ما يوضح لنا دقة اللغة العربية ، فكلمة واحدة هي « رأى » قد يختلف المعنى لها باختلاف ما رُؤى ؛ فرؤيتك وأنت يقظان يُقال عنها « رؤية » ؛ ورؤيتك وأنت نائم يُقال عنها « رؤيا » .

والرؤية مصدر مُتَّفَق عليه من الجميع ؛ فأنت ترى ما يراه غيرك ؛ وأما « الرؤيا » فهي تأتي للنائم .

وهكذا نجد الالتقاء فى « رأى » والاختلاف فى الحالة ؛ هل هى حالة النوم أو حالة اليقظة . وفى الإعراب كلاهما مؤنث ؛ لأن علامة التأنيث إما :

(١) الأمر المعضَل : الصعب الشديد الضيق . معْضَلٌ عليه فى أمره تحقيقاً - ضيقٌ من ذلك وحال بينه وبين ما يريد ظمناً . ومعْضَلٌ بهم المكان - ضيق . وعْضَلَت الأرض يأكلها إذا ضاقت بهم لكثرتهم . [لسان العرب - مادة - عضل] .

« تاء » ، أو « ألف مدودة » ، أو « ألف مقصورة » ^(١) .

وأخذت الرؤية الحقيقية التي تحدث في البيضة « التاء » وهي عمدة
القائيت : أما الرؤيا المنامية فقد أخذت ألف القائيت .

ولا يقدح ^(٢) في كلمة « رؤيا » أنها منامية إلا آية واحدة في القرآن ،
حين تحدث الحق سبحانه عن لحظة أن عرج ^(٣) به ﷺ ؛ فقال :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ۚ ﴾ [الإسراء]

ولكن مَنْ يقولون : « إنها رؤيا منامية » لم يفقهوا المعنى وراء هذا
القول ؛ فالمعنى هو : إن ما حدث شيء عجيب لا يحدث إلا في الأحلام ،
ولكنه حدث في الواقع ؛ بدليل أنه قال عنها : أنها «فتنة للناس» .

(١) علامات القائيت اللفظية ثلاث هي :

- تاء التانيث : تدخل على الفعل والاسم . مثل جالسة وفاطمة ولأنها تدخل التفرقة بين
المذكر والمؤنث فإنها لا تدخل في الأوصاف الخاصة بالمؤنث مثل : جلستى . مرضع .
ليب .

- ألف القائيت المقصورة : وهي ألف لازمة مفتوح ما قبلها تلحق آخر الكلمة الموزنة .
- ألف القائيت المدودة : وهي مقطع مكون من همزة تسبقها ألف مد مفتوح ما قبلها ،
وهي تلحق الأسماء ، دون الأفعال مثل : حسناء ، صمراء ، كبرياء ، عاشوراء . راجع :
انقراعد الصرفية - الدكتور علي أبو المكارم - طبعة ١٩٧٩ من : ٦٢ - ٦٥ .

(٢) قدح : أثار . بقل : قدح الشيء في صدرى : أثار . وفي حديث علي كرم الله وجهه : يقدح
الشك في قلبه بأول عارضة من شبهة . [لسان العرب - مادة : قدح] .

(٣) عرج يعرج عرجاً : صعد وعلا وارتفع . والمعراج : كل ما ساعدك على الصعود . والجمع
معارج . قال تعالى : ﴿ وَمَعَارِجُ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ [الزخرف] أى : يركونها ويصعدون فيها
إلى أعلى . [القاموس اللوهم باختصار : ١٢/٢] .

(٤) قال الأزمري وغيره : جماع معنى الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار . [انظر : لسان
العرب - مادة : فتن] .

فالرسول ﷺ لو كان قد قال إنها رؤيا منامية لما كذَّبه أحد فيما قال ؛
لكنه أعلن أنها رؤيا حقيقية ؛ لذلك عبَّر عنها القرآن بأنها فتنة للناس .

وهنا يقول يعقوب عليه السلام :

﴿ قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ۖ ۝٥ ﴾ [يوسف]

لأن يعقوب عليه السلام كاب مأمونٌ على ابنه يوسف ؛ أما إخوة
يوسف فهم غير مأمونين عليه ، وحين يقصُّ يوسف رؤياه على أبيه ، فهو
سينظر إلى الصالح ليوسف ويدلُّ عليه^(١) .

أما إن قصَّ الرؤيا على إخوته ؛ فقد تجعلهم الاغيار البشرية يحسدون
أخاهم ، وقد كان .

وإن تساءل أحد : ولماذا يحسدونه على رؤيا منامية ، رأى فيها
الشمس والقمر واحدَ عشرَ كوكبا يسجدون له ؟

نقول : لا بدُّ أن يعقوب عليه السلام قد عَلم تأويل الرؤيا ؛ وأنها نبوءة
لأحداث سوف تقع ؛ ولا بدُّ أن يعقوب عليه السلام قد علم أيضاً قدرة
إخوة يوسف على تأويل تلك الرؤيا ، ولو قالها يوسف لهم لفهموا
المقصود منها ، ولا بد حينئذ أن يكتيدوا له كيداً يُصيبه بمكره .

فهم قد أصابهم الضيق من يوسف وهو ما زال طفلاً ، فما باله
بضيقهم إن عَلموا مثل هذه الرؤيا التي يمسجد له فيها الأب والأم مع
الإخوة .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢/٢٤٤٧) : « هذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير
شقيق ولا ناصح ، ولا على من لا يهتدي بالتأويل فيها » .

ولا يعنى ذلك أن نعتبر إخوة يوسف من الأشرار ؛ فهم الأسباط^(١) :
وما يصيبهم من ضيق بسبب علو عاطفة الأب تجاه يوسف هو من الأغيار
التي تصيب البشر ، فهم ليسوا أشراراً بالسليقة^(٢) ؛ لأن الشرير بالسليقة
تتصاعد لديه حراثة السوء ، أما الخير فتتزل عنه حوادث السوء .

والمثل على ذلك : أنك قد تجد الشرير يرغب في أن يصفع إنساناً آخر
صفعة على الخد ؛ لكنه بعد قليل يفكر في تصعيد العدوان على ذلك
الإنسان ، فيفكر أن يصفعه صفعتين بدلاً من صفعة واحدة ؛ ثم يرى أن
الصفعتين لا تكفيان ؛ فيرغب أن يزيد العدوان بأن يصوب عليه مسدساً ؛
وهكذا يصعد الشرير تفكيره الإجرامى .

أما الخير فهو قد يفكر في ضرب إنسان أساء إليه « علقه » ؛ لكنه يقلل
من التفكير في رد الاعتداء بأن يكتفى بالتفكير في ضربه صفعتين بدلاً من
« العلقه » ، ثم يهدأ قليلاً ويعفو عمن أساء إليه .

وإخوة يوسف - وهم الأسباط^(٣) - بدعوا في التفكير بانتقام كبير من
يوسف ، فقالوا لبعضهم :

(١) الأسباط : جمع سبط - والسبط : الشجرة ذات أصل واحد ، ولها الحصان كثيرة ، ونقل
ذلك مجازاً إلى شجرة النسب - فالسبط : القبيلة المنتمية من أصل واحد . والأسباط : هم
القبائل من أولاد يعقوب عليه السلام ، وهما اثنتا عشرة قبيلة تنسب إلى أبناء يعقوب الاثني
عشر : « وَفُتِحَتْ لَهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَاحِيَةً » [الأعراف] [القاموس القويم : ٢٠٠/١] .
(٢) السليقة : الطبيعة والسجية . وفلان يقرأ بالسليقة أى بطبيعته لا بتعلم . وقيل : بالسليقة ،
أى : بطبعه الذى نشأ عليه . قال أبو زيد : إنه لكريم الطبيعة والسليقة [لسان العرب -
مادة : سلق] .
(٣) ذكرت كلمة الأسباط في القرآن ٥ مرات منها ٤ مرات يعنى بها أسباط كلنا أنبياء ،
والموضح الخامس الأسباط هممتى أصول قيثايل بنى إسرائيل ، وكان كل ابن من أبناء
يعقوب هو أول السبط أو ناك .

﴿ اَقْلُوا يَوْسُفَ .. ﴾ (٩) [يوسف]

ثم هبطوا عن هذه الدرجة المؤلمة من تعبيرهم عن الغيرة من زيادة محبة أبيهم ليوسف ، فقالوا :

﴿ أَوْ اطْرَحُوهُ ^(١) أَرْضًا يَغْلُ ^(٢) لَكُمْ وَجْهٌ أَبِيكُمْ .. ﴾ (٩) [يوسف]

وحينما أرادوا أن يطرحوه أرضاً تودوا ؛ ولستبدلوا ذلك بإلقاءه في الجُب ^(٣) لعل أن يلتقطه بعض السَّيَّارَةِ ^(٤) . فقالوا :

﴿ وَأَقْلُوهُ فِي غَيَابَةِ ^(٥) الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. ﴾ (١٠) [يوسف]

وهذا يدل على أنهم تنزلوا عن الانتقام الشديد بسبب الغيرة : بل إنهم فكروا في نجاته .

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرتنا عنها يقول الحق سبحانه :

(١) طرح الشيء يطرحه طرحاً : تهنه وإلقاء . قال تعالى : ﴿ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. ﴾ (١٠) [يوسف]

أي : اقلوه في أرض بعيدة . [القاموس القويم ٢٦٩/١] .

(٢) خلا فلان إلى فلان : فرغ له ولم يشغل عنه بشيء . قال تعالى على لسان إخوة يوسف : ﴿ يَغْلُ لَكُمْ وَجْهٌ أَبِيكُمْ .. ﴾ (١٠) [يوسف] أي : يفرغ لكم والدكم ، ويوجه إليكم بكل عنايته ، ولا يشغل عنكم بأحد غيركم . [القاموس القويم ٢٠٩/١] .

(٣) الجُبُّ : البئر التي لم تُبن بالحجارة ، قال اللث : الجُبُّ : البئر غير البعينة . وقال الفراء : بئر مُجَبَّةٌ الجوف إذا كان وسطها أوسع شئ منها مُقْبِيَّةٌ . وهو أيضاً : البئر الكثيرة الماء البعيدة القعر . [لسان العرب - مادة : جيب] .

(٤) سَيَّارٌ : كثير السير ، صيغة مبالغة . وسَيَّارَةٌ : صيغة مبالغة للمؤنث . والسَّيَّارَةُ : الجماعة المسنونة المسافرة . قال تعالى : ﴿ وَجَلَدَتْ سَيَّارَةٌ .. ﴾ (١٠) [يوسف] أي : جماعة مسافرة ، وقوله : ﴿ مَنَعًا لَّكُمْ وَالسَّيَّارَةِ .. ﴾ (العامدة) للمسافرين [القاموس القويم ٢٤٠/١] .

(٥) غاب الشيء يغيب غيباً : استتر عن العين أو عن علم الإنسان في المعنوي . والغيب : مصدر ويسمى به ما غلب واستقر ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ (البقرة) [البقرة] . [القاموس القويم ٦٤/٢ ، ٦٥ باختصار] .

﴿ لَا تَقْصُصْ رُحُوتَكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ ﴾ (٥) [يوسف]

والكيد : احتيال مستور لمن لا تقوى على مجابته ، ولا يكيد إلا الضعيف : لأن القوى يقدر على المواجهة .

ولذلك يُقال : إن كيد النساء عظيم ! لأن ضعفهن أعظم .

ويُذيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٥) [يوسف]

وهذه العداوة معروفة لنا تماماً : لأنه خرج من الجنة ملحوناً مطروباً : عكس آدم الذي قبل الله تربته : وقد أقسم الشيطان بعزة الله لِيُفْوِيَنَّ الْكُلَّ ، واستثنى عباد الله المخلصين^(١) .

ولذلك يقول ﷺ : « لقد أعاننى الله على شيطانى فاسلم »^(٢) .

ويصف الحق سبحانه عداوة الشيطان للإنسان أنها عداوة مُبِينَةٌ^(٣) .

أى : محيطة . وحين نقرأ القرآن نجد إحاطة الشيطان للإنسان فيها بيقظة :

﴿ لَا تَتَّبِعْهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ۖ ﴾

(١٧) [الأعراف]

(١) حكى رب العزة هذا عن إبليس اللعين أنه قال : ﴿ فَبِمَكَ لَأَغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٢٧) إلا عبادك منهم المخلصين (٢٨) [ص] .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة . قلوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياى ولكن الله أعاننى عليه فلا يأمرنى إلا بحق » . أخرجه أحمد فى مسنده (٢٨٥/١) .

(٣) بأن الشيء بين بين : ظهر واتضح فهو بين وهو بينة أى : ظاهر وظاهرة . ويستعمل البين والبينه بمعنى المظهر والمظاهرة والموضح والموضحة ، وبالمعنيين يلحظ . وبين الشيء وأبان وبين واستبان : لم يبق خافياً . وقوله : ﴿ إِنَّكُمْ لَعَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١٧٨) [البقرة] . [القاموس القويم ١/١١ ، ٩٢ بتصرف] .

ولم يَأْتِ ذِكْرُ الْمَجِيءِ مِنَ اللّٰوْقِيَةِ أَوْ مِنَ التَّمْتِيَةِ ؛ لِأَن مِّنْ يَحْيَا
فِي عِبْرَدِيَّةٍ تَحْتِيَّةٍ ؛ وَعِبَادِيَّةٍ فَوْقِيَّةٍ ؛ لَا يَأْتِيهِ الشَّيْطَانُ أَبَدًا .

ونلاحظ أن الحق سبحانه جاء بقول يعقوب عليه السلام مخاطباً
يوسف عليه السلام في هذه الآية :

﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا .. (٥٠)﴾ [يوسف]

ولم يقل : فيكيدوك ، وهذا من تَضَحُّج^(١) نبوة يعقوب عليه السلام
على لسانه ؛ لِأَن هُنَاكَ فَرْقًا بَيْنَ الْعِبَارَتَيْنِ ، فَقَوْلُ : « يَكِيدُوكَ » يَعْنِي
أَنَّ الشَّرَّ الْمَسْتَوْرَ الَّذِي يَدْبُرُونَهُ هُنَاكَ سَوْفَ يَصِيبُكَ بِأَذَى .

أما ﴿فَيَكِيدُوا^(٢) لَكَ .. (٥٠)﴾ [يوسف]

فَتَعْنِي أَنَّ كَيْدَهُمُ الَّذِي أَرَادُوا بِهِ إِلْحَاقَ الشَّرِّ بِكَ سَيَكُونُ لِحَسَابِكَ ،
وَيَأْتِي بِالْخَيْرِ لَكَ .

ولذلك نجد قوله الحق في موقع آخر بنفس السورة :

﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا يُوسُفَ .. (٧٦)﴾ [يوسف]

أَي : كُنَّا لِمُصَالِحِهِ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) أصل التَضَحُّج : الرَّشْح . يقال : تَضَحَّجَ الرَّجُلُ بِالْعَرَقِ تَضَحُّجًا : غَضَّ بِهِ . وَتَضَحَّتِ الْعَيْنُ :
فَارَتْ بِالْذَّمِّ وَغِيَاةُ تَضَحُّجَانِ وَتَضَحَّتِ الْخَاطِبَةُ وَالْجَرَّةُ تَتَضَحُّجُ : إِذَا كَانَتْ رَقِيْقَةً فَخَرَجَ الدَّمَاءُ
مِنَ الْخَرْقِ وَرَشِمَتْ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ : تَضَحُّجٌ بِتَضَرُّفٍ] .

(٢) كَادَ غَلَاظًا يَكِيدُهُ كَيْدًا : خَدَعَهُ وَكَرَّ بِهِ وَاحْتَالَ لِلْإِلْحَاقِ الْخَرَرُ بِهِ . وَالْكَيدُ سَمٌّ وَيُطْلَقُ
عَلَى الْعَمَلِ أَوْ الْوَسِيلَةِ الَّتِي يَتَلَوَّحُ بِهَا الْكَائِدُ لِيُقْتَلَبَ عَلَى خُصْمِهِ . [الْقَامَرُوسُ الْقَوِيمُ

وَكَذَلِكَ يَجْزِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ^(١)
وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ
مِنْ قَبْلُ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

أى : كما آتسك الله بهذه الرؤيا المفرحة المُنْبِثَة بأنه سيكون لك شأن كبير بالنسبة لإخوتك وبالنسبة لأبيك ، فليسوف يجتبيك ربك ؛ لا بأن يحفظك فقط ؛ ولكن بأن يجعل كيدهم سبباً لصالحك ، ويُعَلِّمُكَ من تأويل الأحاديث ما يجعل أصحاب الجاه والتفوذ يلتفتون إليك .

ومعنى تلويل الشيء أى معرفة ما يؤول إليه الشيء ، وتعلم أن الرؤى تأتي كطلاسم ، ولها شفرة رمزية لا يقوم بحلها إلا مَنْ وهبه الله قدرة على ذلك ؛ فهي ليست علماً له قواعد وأصول ؛ لأنها إلهامات من الله سبحانه وتعالى .

(١) اجتنب فلاناً : اختاره واستخلصه واصطفاه ، قال تعالى : ﴿ يَجْتَنِبْ إِلَهُ مِنْ يَشَاءُ وَيَهْدِ إِلَهُ مِنْ يَشَاءُ ﴾ [الشورى] أى : يصطفى ويختار من يشاء من خلقه . [القاموس المطبوع ١١٧/١] .

(٢) الحديث : الكلام وجمعه أحاديث ، والأحاديث جمع أحديث ، وهى الحديث المجيب . والحديث قد يُطلق على الرؤى والأحلام ، قال تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ .. ﴾ [يوسف] وأما قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ .. ﴾ [المؤمنون] فهو كناية عن الموت والهلاك ، أى : بعد أن كانوا أحياء صاروا أسوأاً يتحدث الناس عنهم . [القاموس المطبوع ١١٥/١] .

وبعد ذلك نصير يا يوسف على خزائن الأرض : حين يُوجد
الجذب^(١) ، ويعم المنطقة كلها ، وتصيح عزيز مصر .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ .. ﴾ (٦) [يوسف]

فكل ما تمتع به يوسف هو من نعم الدنيا ، وتاج نعمة الدنيا أن
الله اجتياه رسولا .

أو أن : ﴿ وَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ .. ﴾ (٦) [يوسف]

بمعنى ألا تسلب منك النعمة أبداً : ففي حياة يوسف منصب مهم ،
هو منصب عزيز مصر . والمناسب من الأغيار التي يمكن أن تنزع .

أو أن : ﴿ وَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ .. ﴾ (٦) [يوسف]

بأن يصل نعيم نثياك بنعيم أخراك^(٢) .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ
رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٦) [يوسف]

يُنكر الحق سبحانه يوسف عليه السلام بأن كيد إخوته له لا يجب
أن يُحرله إلى عداوة : لأن النعم ستتم أيضاً على هؤلاء الإخوة فهم
آل يعقوب : هم وأبنائهم حقة يعقوب ، وسينالهم بعض من عز

(١) الجذب : القشط وهو تقطيع الخشب . والأرض الهديبة : التي ليس بها قليل ولا كثير ولا

تركع ولا كلا ، والأرض المسجاب : التي لا تكاد تُخشب . [لسان العرب - مادة : جذب] .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٤/٣٤٥٠) : ﴿ وَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ .. ﴾ (٦) [يوسف] أي :

بالنبوة . وقيل : بإخراج إخوتك إليك . وقيل : بإتجارك من كل مكروه .

يوسف وجاهه وماله ، كما أتمها من قبل على إبراهيم الجد الأول ليوسف باتخاذ خليلاً^(١) لله ، وأتم سبحانه نعمته على إسحق بالنبوة . وهو سبحانه أعلم بمن يستحق حمل الرسالة ، وهو الحكيم الذي لا يترك شيئاً للعبث ؛ فهو المقدر لكل أمر بحيث يكون موافقاً للصواب .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلِّسَائِلِينَ﴾ (٧)

أى : أن يوسف صار ظرفاً للأحداث ، لأن « فى » تدل على الظرفية^(٢) ، ومعنى الظرفية أن هناك شيئاً يُظرف فيه شيء آخر ، فكان يوسف صار ظرفاً ستدور حوله الأحداث بالأشخاص المشاركين فيها .

و « يوسف » اسم أعجمى ؛ لذلك فهو « ممنوع من الصرف » أى : ممنوع من التثنية فلا نقول : فى يوسف .

و ﴿يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلِّسَائِلِينَ﴾ (٧) [يوسف]

وهذا يعنى أن ما حدث إنما يلفت لقرة الله سبحانه : فقد ألقى فى الجُبِّ وأنقذ ليتربى فى أرقى بيوت مصر .

(١) قال تعالى : ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (١٢٥) [النساء] ، ومعنى إبراهيم عليه السلام خليل الله لشدة محبته له عز وجل لما قام له به من الطاعة التى يحبها ويرضاها . [ابن كثير ٥٦٠/١] .

(٢) قال ابن مشام الانصارى فى معنى اللبيب (١/١٤٤) : « فى » حرف جر له عشرة معان منها : الظرفية وهى إما مكانية أو زمانية ، وقد اجتمعنا فى قوله تعالى : ﴿وَأَتَمَّ﴾ (١) غلبت الروم (٢) فى أفنى الأروم وهم من بعد عليهم سيطرون (٣) فى بعض بين . . . [الروم] . »

ونعلم أن كلمة آية تطلق على الأمر العجيب الملفت للنظر ، وهي
تُرد بالقرآن بثلاثة معانٍ :

آية كونية : مثل الشمس والقمر والليل والنهار ، وتلك الآيات
الكونية رصيد للنظر في الإيمان بواجب الوجود وهو الله سبحانه ؛
فساعة ترى الكون منتظماً بتلك الدقة المتنامية ؛ لا بُدَّ أن تفكر في
ضرورة وجود خالق لهذا الكون .

والآيات العجيبة الثانية هي المعجزات الخارقة للنواميس التي يأتي
بها الرسل ؛ لتدل على صدق بلاغهم عن الله ، مثل النار التي صارت
برداً^(١) وسلاماً على إبراهيم ، ومثل الماء الذي انقلب وصار كالطود^(٢)
العظيم أمام عصا موسى .

وهناك المعنى الثالث لكلمة آية ، والمقصود به آيات القرآن
الكريم .

وفي قول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّأُولِيْ الْأَبْصَارِ ﴾ (٧)

(١) وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَأَوْفُوا حَاقِدَهُ وَانصُرُوا آلَهُتَكُمْ إِن كُنتُمْ مُّاعِلِينَ ﴾ (٢٥) فَمَا تَرَىٰ يُوسُفَ بِرَدِّهَا
وسلاماً على إبراهيم (٢٥) [الأنبياء] والبرد : ضد الحر . والبرودة : تقيض الحرارة . قال علي
ابن أبي طالب : أي لا تفسر به . قال ابن عباس وأبو حمزة : نولا أن الله عز وجل قال :
﴿ وسلاماً على إبراهيم ﴾ [الأنبياء] لأن إبراهيم بردها . وقال جويهر عن الضحاك : ﴿ كَوْنِي بَرْدًا
وسلاماً على إبراهيم ﴾ [الأنبياء] قالوا : ضعوا له حظيرة من حطب جزل ولشعلوا فيه النار
من كل جانب . فأصبح ولم يصبه منها شيء حتى أخمدتها الله ، [انظر تفسير ابن كثير
١٨٤/٢] .

(٢) الطود : الجبل الشاهق العالي . قال تعالى : ﴿ فَاَنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ يُوسُفَ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ ﴾ (٢٦)
[الشعراء] .

نستشف العبرة من كل ما حدث ليوسف الذي كاد له إخوته ليتخلصوا منه ؛ لكن كيدهم انقلب لصالح يوسف .

وفي كل ذلك سلوى^(١) لرسول الله ﷺ ؛ لتثبيت فؤاده ؛ فلا يُعير بالآ لاضطهاد قومه له ، وتآمرهم عليه ، ورغبتهم في نفيه إلى الشام . ومحاولتهم قتله ، ومحاولتهم مُقاطعته ، وقد صاروا من بعد ذلك يعيشون في ظلال كنفه .

إذن : فلا تياس يا محمد ؛ لأن الله ناصرك بإذنه وقدرته ، ولا تستبطيء نصر الله ، أنت ومن معك ، كما جاء في القرآن .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مِّثْلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْمِلُنَّ الْبَاسَاءَ^(٢) وَالضَّرَاءَ وَذُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ لَريبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة]

ويبين لنا الحق سبحانه ما حدث ليوسف بعد القهر الذي أصابه من إخوته ، ويمر الوقت إلى أن تتحقق رؤيا الخير التي رآها يوسف عليه السلام .

ويقال : إن رؤيا يوسف تحققت في فترة زمنية تتراوح بين

(١) سلوى من معنى تسلية وإسلاى أى كشفه عنى . وانسلى عنى الهم وتسللى بمعنى اى : انكشف . [لسان العرب - مادة : سلا] .

(٢) البساء : الفقر والغبّة . قال تعالى : ﴿ وَالضَّالِّينَ فِي الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ ۖ ﴾ [البقرة] فى وقت الفقر والحاجة . والضراء : طول المرض أو شدة أو نقص الاموال والآنفس . وذلك مؤلم حزين وهو ضد السراء . [اللاموس القويم ٥٣/١ ، ٢٩٢] .

أربعين سنة وثمانين عاماً^(١) .

ولذلك نجد رؤيا الخير يطول أمدُ نصديقها ؛ ورؤيا الشر تكون سريعة ؛ لأن من رحمة الله أن يجعل رؤيا الشر يقع واقعا وينتهي ، لأنها لو ظلت دون وقوع لأمد طويل ؛ لوقع الإنسان فريسة تخيل الشر بكل صورته .

والشر لا يأتي إلا على صورة واحدة ، ولكن الخير له صور متعددة ؛ فيجعلك الله متخيلاً لما سوف ياتيكَ من الخير بالوان وتاويل شتى .

والمثل لدعوة الشر هو دعوة موسى على آل فرعون ؛ حين قال :

﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ^(٢) عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ^(٣) عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ^(٤) ﴾ [يونس]

(١) قال أبو عثمان النهدي عن سليمان : كان بين رؤيا يوسف وتاويلها أربعون سنة . وقال الحسن : كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن اتلفيا ثمانون سنة لم يفلح الحزن قلبه ودموعه تجرى على خديه . وهذا يوافق ما قاله ابن كثير في تفسيره (٤٩١/٢) .
(٢) طمس الشيء : تغيرت صورته أو انمحى أثره . وطمسه غيره : موهبه أو مسحاً وإزاله . وطمس عينه : أعماه . وطمس على عينه : أعماه مضمضة معنى غطى وعشى عليها . قال تعالى : ﴿ وَتَوَلَّى نَشَاءَ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ^(٥) ﴾ [يس] . [القاموس القويم ٤٠٦/١ باختصار] .
(٣) شدّه : قواه . وشد الحبل : ربطه وربطاً محكماً . وشد أسره : قوى قيده وأحكم وثاقه فلا يفلت منه أبداً . أى : أحكم السيطرة عليه . ﴿ وَخَلَقْنَا أَسْرَفَهُمْ^(٦) ﴾ [الإنسان] أى : أحكمنا وثلثهم وسيطرنا عليهم . وقوله : ﴿ وَخَلَقْنَا مُلَكَّهُمْ^(٧) ﴾ [ص] أى : قويناه . [القاموس القويم ٢٤٢/١ ، ٢٤٤ بتصرف] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ ۝٧﴾ [يوسف]

فكل يوم من أيام تلك القصة هناك آية وتجمع آيات .

وهناك قراءة أخرى : « لقد كان في يوسف وإخوته آية للسائلين »
أي : أن كل القصة بكل تفاصيلها وأحداثها آية عجيبة .

والحق سبحانه أعطانا في القرآن مثلاً على جمع الأكثر من آية في
آية واحدة ، مثلما قال : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ۝٩٠﴾ [العنكبوت]
مع أن كلا منهما آية منفردة .

ولك أن تنظر إلى قصة يوسف كلها على أنها آية عجيبة تشمل كل
اللقطات ، أو تنظر إلى كل لقطة على أنها آية بمفردها .

ويقول الحق سبحانه في آخر هذه الآية أن القصة : ﴿آيَاتٌ
لِّلْسَّائِلِينَ ۝٧﴾ [يوسف]

والسائلون هنا إما من المشركين الذين حرضهم اليهود^(١) على أن

(١) أي : أنه سبحانه جعلهما آية للناس ، أي حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء ، فإنه خلق
آدم من غير أب ولا أم ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ،
وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى ، قلله ابن كثير في تفسيره لهذه الآية (٢٤٦/٣) .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٢٤٥٠/٤) : « أي : لقد كان للذين سألوا عن خبر يوسف آية
فيما خبروا به ، لأنهم سألوا النبي ﷺ وهو بمكة فقالوا : أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان
بالشام أخرج ابنه إلى مصر ، فبكى عليه حتى عمى ؟ - ولم يكن بمكة أحد من أهل
الكتاب ، ولا من يعرف خبر الأنبياء ، وإنما وجه اليهود من المدينة يسألون عن هذا - فأنزل
الله عز وجل سورة « يوسف » جملة واحدة ، فيها كل ما في التوراة من خبر وزيادة »
فكان ذلك آية للنبي ﷺ بمنزلة إحياء عيسى بن مريم عليه السلام الميت » .

يسألوا رسول الله ﷺ عن مسألة يوسف ، وإما من المسلمين الذين يطلبون العبر من الأمم السابقة ، وجاء الوحي لينزل على الرسول الأُمي بتلك السورة بالآداء الرفيع المعجز الذي لا يقوى عليه بشر .

وأنت حين تقرأ السورة ؛ قد تأخذ من الوقت عشرين دقيقة . هات أنت أي إنسان ليتكلم ثلث ساعة ، ويظل حافظاً لما قاله ؛ لن تجد أحداً يفعل ذلك ؛ لكن الحق سبحانه قال لرسوله ﷺ :

﴿ سَتُؤْتِيكَ فَلا تَنسَى (٦) ﴾ [الأعلى]

ولذلك نجد الرسول ﷺ يحفظ ما أنزل إليه من ربه ، ويُعلمه على صحابته ويصلي بهم ؛ ويقرأ في الصلاة ما أنزل عليه ، ورغم أن في القرآن آيات متشابهات ؛ إلا أنه ﷺ لم يخطئ مرة أثناء قراءته للقرآن .

والأمثلة كثيرة منها قوله الحق :

﴿ وَأَصْبِرْ عَلَى ما أَصَابَكَ إِنَّ ذَلكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) ﴾ [الإنسان]

ومرة أخرى يقول :

﴿ إِنَّ ذَلكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٢) ﴾ [الشورى]

وكذلك قول الحق سبحانه :

(٦) عزم الأمر : من المجاز أي نفذ بعزيمة قوية من صاحبه . قال تعالى : ﴿ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرَ (١٢) ﴾ [محمد] فعل لازم أي : نفذ وتقرر وثبت بعزيمة قوية منكم . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ (٢٢٧) ﴾ [البقرة] أي : عقدوا النية على إتمامه . وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّ ذَلكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٢٢) ﴾ [آل عمران] أي : من الأمور العجاجة الرشيدة التي لا يجوز التردد فيها أو من الأمور المنظمة التي يفعلها أصحاب العزم القوي . [القاموس القويم ٢ / ٢٠]

[الحجر]

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾

وفي موقع آخر يقول الحق :

[الطود]

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾

فكيف يتأتى لبشر أمة أن يتذكر كل ذلك ، لولا أن الذي أنزل عليه الوحي قد شاء له ذلك .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ ﴿١﴾ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾﴾

ولا بُدُّ لنا هنا أن ننظر إلى الأخوة بنوعياتها : فقد تكون الأخوة من ناحية الأبوين معاً : وقد تكون من ناحية الأب دون الأم، أو من ناحية الأم دون الأب ، وكان عدد أبناء يعقوب عليه السلام اثنا^(١)

(١) العصابة : الجماعة المترابطة ، قال تعالى عن إخوة يوسف قلوبهم : ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ . . .﴾ (٤٥) [يوسف] . عصب : ربطه ربطاً شديداً . وقوله : ﴿فَإِذَا يَوْمَ عَصَبَ﴾ (٤٥) [هود] أي : شديد العصب يعصب الناس ويضيق عليهم أو شديد الحر ، شديد الهول ، [القاموس القويم ٢٢/٢] .

(٢) الضلال : النسيان والضياع . وقد يطلق الضلال على عمل خلاف الأولى كقوله في قصة يوسف : ﴿إِنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٤٥) [يوسف] أي : شدة تملكك بيوسف وحزنك عليه فهو في نظرهم ضلال [القاموس القويم : ٢٩٥/١] .

(٣) قال القرطبي في تفسيره (٣٤٥٦/٤) : . . . أسماؤهم : روبيل وهو أكبرهم . وشمعون ولاوي ويهوذا وزبالون ويساخر . واسم ليا بنت ليمان . وهي بنت خنث يعقوب . وولد له من سريتين أربعة فتر : دان ونفتالي وجاد وأشر . ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل . فولدت له يوسف وبنيامين . فكان بنو يعقوب اثني عشر رجلاً . قال السهيلي : أم يعقوب اسمها رافيا . وراحيل ماتت في نفس بنيامين . وقيل : في اسم الامتين ليا وتلتا . كانت إحدىهما لراحيل والأخرى لأختها ليا . .

عشر : سبعة من واحدة : وأربعة من اثنتين : زلفى وبلهه : واثنين من راحيل هما : يوسف ، وأخوه بنيامين .

وتبدأ الآية التي نحن بصدد خواتمنا عنها :

﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا...﴾ (A) [يوسف]

وحرف اللام الذي سبق اسم يوسف جاء للتوكيد ، وكأنهم قالوا : والله إن أبانا يحب يوسف وأخاه أكثر من حُبِّ لنا ، والتوكيد لا يأتي إلا بصدد إنكار .

وهذا يدل على أنهم مختلفون في أمر يوسف عليه السلام ؛ فأحدهم يريد أن ينتقم من يوسف ، وآخر يقترح تخفيف المسألة بإلقائه في الجب^(١) ؛ ثم انتهوا إلى أن يوسف أحبُّ إلى أبيهم منهم .

وفي قولهم لَمَحَّة من إنصاف ؛ فقد أثبتوا حب أبيهم لهم ؛ ولكن قولهم به بعض من غفلة البشر ؛ لأنهم كان يجب أن يلتمسوا سبب زيادة حب أبيهم ليوسف وأخيه .

فيوسف وأخوه كانوا صِغَارًا وماتت أمهما^(٢) ؛ ولم يَعدْ لهم إلا الأب الذي أحسَّ بضرورة أن يجتمع فيه تجاههما حنانُ الأب وحنانُ الأم ؛ ولأنهما صِغَارٌ تجد الأب يحنُّ عليهما بما أودعه الله في قلبه من قدرة على الرعاية .

وهذا أمر لا دَخَلَ ليحقوق فيه ؛ بل هي مسألة إلهية أودعها الله

(١) الجب : البئر التي لم تُبن بالحجارة ، قال الليث : هي البئر غير البعيدة ، وقال القراء : بئر مُجْبِيَّة الجوف [إنا كان وسطها أوسع شيء منها مُقْبِيَّة] [لسان العرب - مادة : جب] .

(٢) ماتت أمهما راحيل في نقاس بنيامين ، ذكره الفرطين في تفسيره .

فى الفلوب بدون اختيار ؛ ويودعها سبحانه حتى فى قلوب
الحيوانات.

وقد شاء سبحانه أن يجعل الحنان على قدر الحاجة ؛ فالقطة -
على سبيل المثال - إن اقترب أحد من صغارها المولودين حديثاً ؛
تهجم على هذا الذى اقترب من صغارها .

ولذلك نجد العربى القديم قد أجاب على مَنْ سألته « أى ابنائك
أحب إليك ؟ » فقال : « الصغير حتى يكبر ؛ والغائب حتى يعود ،
والمرضى حتى يشفى » .

وهذه مسألة نراها فى حياتنا اليومية ، فنجد امرأة لها ولدان ،
واحد أكرمه الله بسعة الرزق ويقوم بكل أمورها واحتياجاتها ؛ والآخر
يعيش على الكفاف^(١) أو على مساعدة أخيه له ؛ ونجد قلبها دائماً مع
الضعيف .

ولذلك نقول : إن الحب مسألة عاطفية لا تخضع إلى التقنين ؛
ولا تكليف بها ؛ وحينما يتعرض القرآن لها فالحق سبحانه
يوضح : أن الحب والبغض انفعالات طبيعية^(٢) ؛ فأحب مَنْ شئتَ
وأبغضْ مَنْ شئتَ ؛ ولكن إياك أن تظلم الناس لمن أحببت ؛ أو تظلم
مَنْ أبغضت .

(١) الكفاف : أى ليس فى نفقتك فضل إنما عنده ما يكله عن الناس . قال الجوهري : كفاف
الشيء بالغنى مثله وقِيَّته . والكفاف أيضاً من الرزق : القوت وهو ما كف عن الناس أى
الغنى فهو لا يفضل من الشيء ويكفى بقدر الحاجة إليه . [لسان العرب - مادة : كف] .
(٢) الطبع والطبيعة : الخلقة والسجية التى جبل عليها الإنسان . والطباع : كالطبيعة ، مؤنثة
[لسان العرب - مادة : طبع] .

[العائدة]

أو البغض .

أَكُونُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ .

النبي ﷺ قوله :

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه »^(٧).

أقرب للمقوى . [القاموس القويم ١/ ١٢١] .

شأنك من الأمر (٣) [الكوترا] أي : بمفصلك وكأرك . (القاموس المفيد ١/ ٣٥٧) .

قبر مصطفیٰ (ع) (۳۴۶/۲)

نفطنَ عمر رضى الله عنه إلى أن الأمر هو التزام عقدي وتكليفى ؛
وفهم أن المطلوب هو حبُّ العقل ؛ لا حبُّ العاطفة .

وحبُّ العقل - كما نعلم - هو أن تبصر الأمر النافع وتفعله ؛ مثلما
تأخذ الدواء المرُّ ؛ وأنت تفعل ذلك بحبِّ عقلى ؛ رغبةً منك فى أن
يأذن الحق بالشفاء .

والمسلم يحب رسول الله ﷺ بعقله ؛ لأنه يعلم أنه لولا مجيء
رسول الله لما عرف حلاوة الإيمان ، وقد يتسامى^(١) المسلم فى حبِّ
رسول الله ﷺ إلى أن يصير حب الرسول فى قلبه حباً عاطفياً .

وهكذا نرى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أوضح لنا
الخطوط الفاصلة بين مبادئ الحب العقلى والحب العاطفى .

والمثال الآخر من سيرة عمر رضى الله عنه فى نفس المسألة ؛
حب العقل وحب العاطفة ؛ حين مرَّ عليه قاتل أخيه ؛ فقال واحد ممن
يجلسون معه ؛ هذا قاتل أخيك . فقال عمر ؛ وماذا أفعل به وقد هداه
الله للإسلام ؟

وصرف عمر وجهه بعيداً عن قاتل أخيه ؛ فجاء القاتل إليه قائلاً ؛
لماذا تزوى وجهك عني ؟ قال عمر ؛ لأني لا أحببك ، فأنت قاتلُ
أخى . فقال الرجل ؛ أو يمنعني عدم حبك لى من أى حق من
حقوقى ؟ قال عمر ؛ لا . فقال الرجل ؛ لك أن تحب من تريد ،
وتكره من تريد ، ولا يبكى على الحب إلا النساء .

وكان على إخوة يوسف أن ينتبهوا إلى أن حب والدهم ليوسف

(١) السمو : الارتفاع والعمل . سما الشيء : سموا سموا : ارتفع . وتساموا : تباروا .
وتساميها : تباريها وتفاخرها . والتسامى : الرفعة والارتقاء . [لسان العرب - مادة :
سما] يتصرف .

واخيه هو انفعال طبيعي لا يُؤخذُ به الأب ؛ لأن ظروف الولدين حتمت عليه أن يحبهم مثل هذا الحب .

وتستمر القصة بما فيها من تصعيد للخير وتصعيد للشر ؛
ولسائل أن يسأل : ولماذا انصب غضبهم على يوسف وحده ؟

ويقال : إنهم لم يرغبوا أن يَفْجَعُوا^(١) أباهم في الاثنين - يوسف واخيه - أو أن شيئاً من رؤيا يوسف تسرب إليهم .

ومن العجيب أن يقولوا بعد ذلك : ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾^(٢) [يوسف]

والعصبة من عدد عشرة فما فوق ؛ والعصبة أيضاً هم المُتَكَاتِفُونَ
المُتَعَصِّبُونَ لبعضهم البعض ؛ وهم الذين يقومون بالمصالح ويقضون
الحاجات ؛ وقد تقاعد أبوهم ؛ وترك لهم إدارة أعمال العائلة .

وقالوا : « ما نُمْنًا نقوم بمصالح العائلة ، فكان من الواجب
أن يَخُصَّنَا أبونا بالحب » ولم يلتفتوا إلى أنهم عُصْبَةٌ ، وهذا ما
جعل الأب يحبهم ، لكنه أعطى مَنْ ليسوا عصبة مزيداً من الرعاية ،
ولكنهم سددوا^(٣) في غيهم^(٤) ، ووصلوا إلى نتيجة غير مطلقة وهي
قولهم :

(١) الفجعة : الرزية الموجهة ، فجعة المصيبة ، أرجعته ، والفرجع - المصائب المؤلمة التي
تقع الإنسان بها يعز عليه من مال أو حميم ، ولحدة فاجعة ، [لسان العرب - مادة :
فجع] .

(٢) السادر : المتصير ، وهو أيضاً الذي لا يهتم لشيء ولا يُبالى ما صنع - [لسان العرب -
مادة : سدر] .

(٣) الغي : الضلال والضيق ، غوى : ضلَّ ، والغواية : الانهالك في الغي ، والغوى : شديد
الضلالة والغواية ، وأغواه : أضله وأوقعه في الغي والضلال ، [القاموس القويم ٦٤/٢] .

[يوسف]

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٨)

وهذا القول هو نتيجة لا تنسجم مع العقدمات ، فيوسف وأخوه طفلان مانت أمهما ، ولا بد أن يعطف عليهما الأب ؛ وحبهما لهما لم يمنع حبه للأبناء الكبار القادرين على الاعتماد على أنفسهم .

وحين يقولون :

[يوسف]

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٨)

قد يفهم بعض الناس كلمة « ضلال » هنا بالمعنى الواسع لها .
نقول : لا ؛ لأن هناك ضلالاً مقصوداً ، وهو أن يعترف طريق الحق ويذهب إلى الباطل ، وهذا ضلال مذموم .

وهناك ضلال غير مقصود ، مثل : ضلال رجل يعيش فيسلك طرقاً لا يعرفها فيضل عن مقصده ؛ ومثل من ينسى شيئاً من الحق .
وسبحانه القائل :

[البقرة]

﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى .. ﴾ (٢٨٢)

وسبحانه القائل أيضاً :

[الضحى]

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ (٧)

إذن : فالضلال المذموم هو أن تعرف طريق الحق ، وتذهب إلى الضلال .

وهكذا أخطأ إخوة يوسف في تقدير أمر حب أبيهم ليوسف

وأخيه : ووصلوا إلى نتيجة ضارة : لأن المقدمات التي أقاموا عليها تلك النتيجة كانت باطلة : ولو أنهم مُحَصُّوا المقدمات تمحيصاً دقيقاً لَمَّا وصلوا إلى النتيجة الخاطئة التي قالوها :

﴿ إِنَّ أَنَا لَهِيَ ضَلَالٌ مُبِينٌ ﴾ (٨) [يوسف]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما جاء على السنة إخوة يوسف :

﴿ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ طَرْحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ
وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ (٩)

والقتل هو قمة ما فكروا فيه من شر : ولأنهم من الأسباط مبط الشر إلى مرتبة أقل : فقالوا : ﴿ أَوْ طَرْحُوهُ أَرْضًا .. ﴾ (٩) [يوسف]

فكانهم خافوا من إثم القتل : وظنوا بذلك أنهم سينقردون بحب أبيهم : لأنهم قالوا : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ﴾ (٩) [يوسف]

والوجه هو الذي تتم به المواجهة والابتسام والحنان ، وهو ما تظهر عليه الاتفعالات .

والمقصود به : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ﴾ (٩) [يوسف]

(١) طرح الشيء وطرح به : رماه . والطرح بالتحريك : البعد والمكان البعيد . قال تعالى : ﴿ لَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا .. ﴾ (٥) [يوسف] أي : القوه في أرض بعيدة . [القاموس القويم ٢٩٩/١] .
(٢) خلا فلان إلى فلان : فرغ له ولم يشغل عنه بغيره . قال تعالى على لسان إخوة يوسف : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ﴾ (٩) [يوسف] أي : يفرغ لكم والدكم ويتجه إليكم بكل عنايته ولا يشغل عنكم بأحد غيركم . [القاموس القويم ٢٩٩/١] .

هو ألا يوجد عائق بينكم وبين أبيهم .

وقولهم : ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ (٩) [يوسف]

أى : أنهم يُقدِّرون الصلاح : ويعرفون أن الذى فكروا فيه غير مقبول بموازين الصلاح : لذلك قالوا : إنهم سيتوبون من بعد ذلك .

ولكن : ما الذى أدرأهم أنهم سوف يعيشون إلى أن يتوبوا ؟ وهم بقولهم هذا نسوا أن أمر الموت قد أبهم حتى لا يرتكب أحد المعاصى والكبائر .

أو : أن يكون المقصود بـ : ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ (٩) [يوسف]

هو أن يكونوا صالحين لحركة الحياة ، ولعدم تنغيص^(١) علاقتهم بابيهم : فحين يخلو لهم وجهه : سيرتاحون إلى أن أباهم سيعدل بينهم ، ويهيئهم كل حبه فيرتاحون .

أو أن يكون المقصود بـ : ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ (٩) [يوسف]

أن تلك المسألة التى تشغل بالهم وتأخذ جزءاً من تفكيرهم إذا ما وجدوا لها حلاً : فسيرتاح بالهم فينتصلح حالهم لإدارة شئون دنياهم .

وهكذا نفهم أن سعيهم إلى الصلاح : منوط بمراداتهم فى الحياة ، بحسب مفهومهم للصلاح والحياة .

(١) النغص : كثر العيش .. وقد نغص عليه عيشه تنغيصاً أى : كثرة . ونغص علينا أى : قطع علينا ما كنا نحب الاستكثار منه ، وكل من قطع شيئاً مما يحب الازدىاد منه فهو مُنْغَص . [لسان العرب - مادة : نغص] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غِيَابِ الْجُبِّ^(١)
يَلْقِظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ^(٢) إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ^(٣) ۝ ١٠ ﴾

وهكذا نرى التخفيف في البشر حين يرقض واحد منهم مبدأ
القتل ، واستبدله بالإخفاء بإلقائه في الجُبِّ .

ولم يحدد الحق سبحانه لنا اسم القاتل حتى يصعبهم جميعاً من
سوء الظن بهم .

والجُبُّ هو البئر غير المطوى^(٤) ؛ ونحن نعلم أن الناس حين تحفر
بئراً ، فمياه البئر تتدفق طوال الوقت ؛ وقد يأتي الردم فيسدُّ البئر ؛
ولذلك يبنون حول فُوهة البئر بعضاً من الطوب لحمايته من الرُّدم ؛
ويسمون مثل هذا البئر ، بئر مطوى ، وهكذا تظل المياه في البئر
في حالة استتراق .

(١) غيابة الجب : ما غاب من جوائبه عن النظر ويستقر ما اختبأ فيه . قال تعالى : ﴿ وَالْقَوْهَ فِي
غِيَابِ الْجُبِّ ۚ ﴾ [يوسف] وقريء غيبات بالجمع [القاموس القويم ٦٥/٢] وغيابة
كل شيء : قعره . ووقعوا في غيبلة من الأرض ، أي : في منهيض منها . [لسان العرب -
مادة : غيب] .

(٢) السيار : الكثير السير . والسيارة : الجعاجة السائرة المسافرة . قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ
سَيَّارَةٌ ۚ ﴾ [يوسف] . وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَالسَّيَّارَةِ ۚ ﴾ [العائدة] أي : للمسافرين .
[القاموس القويم ٣٤٠/١] .

(٣) الطوى : البئر المطوية بالمجارة . يقال : طوى الركبة طياً : عرشفها بالحجارة والأجر .
[لسان العرب - مادة : طوى] .

[يوسف]

وكلمة : ﴿ غِيَابَةُ الْجُبِّ ﴾ (٦٠)

أى : المنطقة المَخْفِيَّة في البئر : وعادة ما تكون فوق الماء : وما فيها يكون غائباً عن العيون .

ولسائل أن يقول : وكيف يتأتَّى القاءه في مكان مَخْفِيٍّ مع قول أحد الإخوة : ﴿ يَلْتَفِتُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ (٦١) [يوسف]

ونقول : إن في مثل هذا القول تنزيلاً لدرجة الشر التي كانت متوقَّدة في اقتراح بعضهم بقتل يوسف : وفي هذا الاقتراح تخفيض لمسألة القتل أو الطَّرْح أرضاً .

وبعد ذلك عاد القائل^(١) لحالته العادية ، وصَحَّحَتْ فيه عاطفة الأخوة : وقال :

﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (٦٢) [يوسف]

أى : أنه توقع عدم رفضهم لاقتراحه .

وهكذا يشرح لنا الحق سبحانه كيف تَمَّتْ تصفية هذه المسألة : فلم يقف صاحب هذا الرأي بالعنف ضد اقتراح إخوته بقتل يوسف أو طَرْحه في الأرض : بل أخذ يسترجعهم ليستلَّ منهم ثوبة للفضب : فلم يَقُلْ لهم « لا تقتلوه » ، ولكنه قال : « لا تقتلوا يوسف » .

وفي نُطْقِهِ للاسم تحنين لهم .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٣٤٥٦ / ٤) : « القائل هو يهوذا ، وهو أكبر ولد يعقوب . قاله ابن عباس . وقيل : روبيل ، وهو ابن خالته . وقيل : شمعون » .

وبضيف :

﴿وَالْقَوَّةُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْغِظُهُ^(١) بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١١)﴾

[يوسف]

وكانه يأمل في أن يتراجعوا عن مخططهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمُرُنَا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ

لَنَصِاحُونَ (١٢)﴾

وبعد أن وافقوا أخاهم الذي خُفِّفَ من مسألة القتل ، ووصل بها إلى مسألة الإلقاء في الجب ؛ بدأوا التنفيذ ، فقال واحد منهم مُوجِّهاً الكلام لأبيه . وفي حضور كل الإخوة :

﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمُرُنَا عَلَى يُوسُفَ.. (١٢)﴾

[يوسف]

وساعة تسمع قول جماعة ؛ فاعلم أن واحداً منهم هو الذي قال ، وأمن الباقون على كلامه ؛ إما سُكُوتاً أو بالإشارة .

ولكى يتضح ذلك اقرا قول الحق سبحانه عن دعاء موسى عليه السلام على فرعون وكان معه هارون .

(١) اللفظ الشيء ، والظن : أخذه ليعصونه أو ليعرض آخر ، ولا يلتقط الإنسان إلا ما يراه ظاهراً ، قال تعالى : ﴿فَالْظَنُّ أَلَّا يَرْجِعُ^(٢)﴾ [القصص] فاخلطوه ظناً منهم أنه مفيد نافع لهم . وكذلك قوله ﴿يَلْغِظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ.. (١٢)﴾ [يوسف] يأخذ به بعض المسالدين لينتفعوا به وليصوتوه . [القبول للقرآن ١٩٨/٢] .

قال موسى عليه السلام :

﴿رَبَّنَا اَطْمِسْ^(١) عَلَيَّ اَمْوَالِيهِمْ وَاَشْدُدْ^(٢) عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا
الْعَذَابَ الْاَلِيمَ (٨٨)﴾ [يونس]

وَرَدَّ الْحَقُّ سَجْحَانَهُ عَلَى دَعَاءِ مُوسَى :

﴿فَلَمَّا أَجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا .. (٨٩)﴾ [يونس]

والذى دعا هو موسى ، والذى آمَنَ على الدعوة هو هارون عليه السلام .

وهكذا نفهم أن الذى قال :

﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (٩١)﴾ [يوسف]

تلك الكلمات التى وردت فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ،
هو واحد من إخوة يوسف ، وأَمَنَ بقية الإخوة على كلامه .

وقولهم : ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (٩١)﴾ [يوسف]

يدل أنه كانت هناك محاولات سابقة منهم فى ذلك ، ولم يوافقهم
الأب .

(١) طمس الشيء : تغيرت صورته أو انتهى أثره . وطمسه غيره : شوهه أو سباه وأزاله .
وطمس عينه : أعماه . وقوله تعالى : ﴿رَبَّنَا اَطْمِسْ عَلَيَّ اَمْوَالِيهِمْ .. (٨٨)﴾ [يونس] أى : ائزل
عليها ما يحويها ويهلكها . [القاموس القويم ٤٠٦/١] .

(٢) شد الحبل : ربطه ربطاً محكمًا وشد أسرته : قوى قيده ولكم وثاقه فلا يفلت منه أبداً .
أى أحكم السيطرة عليه . ﴿وَضَعْنَاهُ أَشْرَفَهُمْ .. (١٢٥)﴾ [الإنسان] . أى : أحكمنا وثاقهم
وسيطرنا عليهم . وقوله : ﴿وَضَعْنَاهُ مَلَكَهُ .. (١٢٦)﴾ [ص] أى : قوينا . وقوله : ﴿وَأَشَدُّ عَلَى
قُلُوبِهِمْ .. (١٢٧)﴾ [يونس] أى : أحكم للقطاه وربطه بقوة على قلوبهم ومن دعاء عليهم .
[القاموس القويم ٢٤٤/١] .

وقولهم : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ (١١)

[يوسف]

يعنى أنهم سوف ينتبهون له ، وإن يحدث له ضرر أو شر ؛
وسيعطونه كل اهتمام فلا داعى أن يخاف عليه الأب .

ويستمر عرض ما جاء على لسان إخوة يوسف :

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ

لَحَافِظُونَ ﴾ (١٢)

ولأنهم كانوا يخرجون للرعى والعمل ؛ لذلك كان يجب أن يأتوا
بعلة ليأذن لهم أبوهم بخروج يوسف معهم ، ويوسف فى أوان
الطفولة ؛ واللعب بالنسبة له أمر مُحِبٌّ ومسموح به ؛ لأنه ما زال
تحت سن التكليف ، واللعب هو الشغل المباح لقصد انشراح النفس .

ويُفَضَّلُ الشرع أن يكون اللعب فى مجال قد يطلبه الجدُّ مستقبلاً ؛
كان يتعلم الطفل السباحة ، أو المصارعة ، أو إصابة الهدف ؛ وهى
الرماية^(١) وهكذا نفهم معنى اللعب ؛ إنه شُغْلٌ لا يُلْهِى عن واجب ، أما
اللهو^(٢) فهو شُغْلٌ يُلْهِى عن واجب .

(١) يرتع يرتع : أكل وشرب كما يشاء فى خصب وسعة . وأصله : أكل البهائم ويستعار
للإنسان إذا اطلق لشبهات بطنه العنان . [القاموس القويم ٢٥٦/١] .

(٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « مر النبي ﷺ بفقر يرمون ، فقال : رمياً بنى
إسماعيل فإن أباكم كان رامياً » أخرجه أحمد فى مسلم (٢٦٤/١) وأخرجه البخارى فى
سميعه (٢٨٩٩) عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه بنحوه .

(٣) لها يلهو لهُواً : تسلى وشغل نفسه بما فيه لذتها وسرورها . أو تسلى بما لا يليقه . قال
تعالى : ﴿ قُلْ مَا عِدَّ اللَّهُ خَيْرٌ مِنَ الْهَوَىٰ وَهُوَ الْفِتْنَةُ .. ﴾ (٥٥) [الجمعة] واللهو هنا : الغناء والطيل
والزمر الذى كان يصاحب حومة التجار وقت الحلاة . [القاموس القويم ٢٠٥/٢] .

وهناك بعض من الألعاب يمارسها الناس ؛ ويجلسون معاً ؛ ثم يؤنن المؤمن ؛ ويأخذهم الحديث ؛ ولا يلتفتون إلى إقامة الصلاة في ميعادها ؛ وهكذا يأخذهم اللهو عن الضرورة ؛ أما لو التفتوا إلى إقامة الصلاة ؛ لصار الأمر مجرد تسلية لا ضرر منها .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ
الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ (١٢)

وكلام الأب هنا لا بُدَّ أن يغيظهم فهو دليل المحبة الفائقة إلى الدرجة التي يخاف فيها من فراق يوسف لقلة صبره عنه ، وشدة رعايته له ؛ ثم جاء لهم بالحكاية الأخرى ، وهي :

﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ (١٣) [يوسف]

وقال بعض الناس^(١) : لقد علمهم يعقوب للكذبة ؛ ولولا ذلك ما عرفوا أن يكذبوها .

ونلاحظ أن يعقوب جعل للأخوة لحظاً ؛ فلم يقل : « أخاف أن يأكله الذئب وأنتم قاعدون » بل قال :

﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ (١٣) [يوسف]

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٤٧٠ / ٢) : « أخذوا من فم هذه الكلمة وجعلوها عذراً فيما فعلوه » . وقد أورد السيوطي في « الدر المنثور » (٥١٠ / ٤) آثاراً في هذا الشأن ، فقال : أخرج أبو الشيخ وابن مردويه والعلاني في الطيوريات عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : « لا تلقوا الناس فيكتبوا ، فليكن بني يعقوب لم يعلموا أن الذئب ياكل الناس ، فلما لقنهم أبوعم كتبوا فقالوا لكة الذئب » .

وهذا ليُرِيَّ فيهم مواجيد الأخوة التي تفترض ألا يتصرفوا مع
أخيهم بشرّاً ؛ ولا أن يتصرف غيرهم معه بشرّاً إلا إذا غفلوا عن
أخيهم .

ونلاحظ في رؤهم عجزهم عن أن يردوا على قوله :

﴿ إِنِّي لَبِئْسَ نَجِسٌ أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ .. ﴾ (١٢) [يوسف]

فهذا الحب من يعقوب ليوسف هو الذي دفعهم إلى الحقد على
يوسف ، وردّوا ققط على خرقه من أن يأكله الذئب ، وجاء القرآن بما
قالوه :

﴿ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا
لَّخَسِرُونَ ﴾ (١١)

وهنا يكشف لنا الحق سبحانه محاولاتهم لطمانه أبيهم ؛ كي ياذن
في خروج يوسف معهم ؛ ولهذا استنكروا أن يأكله الذئب وهم
مُحِيطُونَ به كعُصْبَةٍ ، وأعلنوا أنه إن حدث ذلك فهم سيخسرون
كرامتهم أمام أنفسهم وأمام قومهم ، وهم لا يقبلون على أنفسهم هذا
الهُوان^(١) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٤٦٢/٤) : « قوله ﴿ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ ﴾ (١١) [يوسف] أي : ■
لخسرون في حفظ أثماننا ، أي : إذا كنا لا نقدر على دفع الذئب عن أخينا لنحن أعجز أن
ندفعه من أثماننا » .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِرُءُوسِهِمْ فَنَسَوْا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٥ ﴾
إِلَيْهِ لَنُنَبِّئَنَّهِنَّ بِأَمْرِ هُنَّ هَذَا وَهُنَّ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

وقوله الحق :

﴿ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ ١٥ ﴾ [يوسف]

يدلنا على أن تلك المسألة أخذت منهم مناقشة ، فيها أخذ ورد ، إلى أن استقروا عليها^(١) .

والهم الحق سبحانه يوسف عليه السلام بما سوف يفعلونه ، والوحى كما نعلم هو إعلام بخفاء .

وسوف يأتى فى القصة أن يوسف عليه السلام بعد أن تولى الوزارة فى مصر ودخلوا عليه أمسك بقدح وتقرر عليه بأصابعه ، وقال لهم : اسمعوا ما يقوله القدح : إنه يقول : إِنْ لَكُمْ لُخَا وَقَدْ نَعَطْتُمْ بِهِ كَذَا^(٢) .

(١) جمع أمره : عزم عليه أو حكمه . قال تعالى : ﴿ فَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾ [طه] أى : عزم عليه وحكمه . واجمع القوم على أمر : اتفقوا عليه . واجمع الأمر : عزم عليه وحكمه . قال تعالى : ﴿ فَاجْتَمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتَّفَعُوا صَفًّا ١٥ ﴾ [طه] وقال تعالى : ﴿ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ ١٥ ﴾ [يوسف] أى : اتفقوا . [القاموس القويم ١ / ١٢٧] .

(٢) ذكر القرطبي فى هذا أن يعطرب عليه السلام لما أرسله معهم أخذ عليهم ميثاقاً غليظاً ليحفظنه . وسلمه إلى روبيل وقال : يا روبيل إنه صغير وتعلم يا بنى شغلتنى عليه ، فإن جاع فاطعمه . وإن عطش فامسكه وإن أعيا فاحمله ، ثم عجل برؤيه إلي . قال : فآخذوه يفعلونه على أكتافهم ، لا يضعه واحد إلا رفعه آخر [انظر : تفسير القرطبي ٤ / ٢٤٦٢] .

(٣) أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لما دخل إخوة يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون ، جيء بالصواع فوضع على يده ، ثم تفرقوا فقال : إني أخبرتكم هذا الجام أنه كان لكم أخ من ليبيكم يقال له يوسف ، يدين بينكم وأنكم انتظلكم به فالتفتوه فى غيابة الجب ، فاتيتكم أباكم فظنتم : إن اللب أكله وجنتم على لمبسه بدم كذب . فقال بعضهم لبعض : إن هذا الجام ليخبره خبركم ، (أورده السيوطي فى الدر المنثور ٤ / ٥١١) »

وبعض المفسرين قال : إن الحق سبحانه أوحى له ، ولم يَحْظَ إخوته هذا الوحي .

ونقول : إن الوحي إعلام بخفاء ، ولا يمكن أن يشعر به غير الموحى إليه ، وعلى ذلك نرى أنهم لم يعلموا هذا الأمر إلا بعد أن تولى يوسف مقاليد الوزارة في مصر : بل إنهم لم يعرفوا أن يوسف أخوهم ؛ لأنهم قالوا له لحظتها :

﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ^(١) أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ . . (٧٧)﴾ [يوسف]

والمقصود بالوحي في هذه الآية - التي نحن بصدد خواطرها عنها - هو إيفاس الوحشة ؛ وهو وارد إلهي لا يردده وارد الشيطان ؛ والإلهام وارد بالنسبة لمن هم غير أنبياء ؛ مثلما أوضحنا الأمر الذي حدث مع أم موسى حين أوحى لها الله أن تلقيه في اليم^(٢) .

(١) يقصدون يوسف عليه السلام . قال سعيد بن جبير عن قتادة : كان يوسف عليه السلام قد سرق صنفاً لجنه أبي أمه فكسره . وقال محمد بن إسحاق عن عبدالله بن أبي نجيح عن مجاهد قال : كان أول ما دخل على يوسف من البلاء - فيما بلغني - أن حسنه ابنة إسحاق وكانت أكبر ولد إسحاق وكانت عندها منطقة إسحاق وكانوا يتوارثونها بالكبر وكان من اختبائها من ولدها كان له سماً لا يئازع فيه يصنع فيه ما يشاء وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضنته حمت وكان لها به وكلة فلم تصب أحداً حبها إليه حتى إذا ترعرع وبلغ سنواً ثلثت إليه عيس يعقوب فأتاها فقال : يا أخية سلمي (أي يوسف) فرأى الله ما أهدر على أن يغيب عيس ساعة قالت : فو الله ما لنا بباركته ثم قالت : قدمه عندي أياماً أنظر إليه وأسكن عنه لعل ذلك يسليني عنه أو كما قالت فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ثم قالت : ففقدت منطقة إسحاق عليه السلام فأنظروا من أخذها ومن أصابها ؟ فالتحست ثم قالت : اكتشفوا أهل البيت فكتشفوه فوجدوها مع يوسف فقالت : والله إنه لم يسلّم أصنع فيه ما شئت ، فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر فقال لها : أنت وذلك إن كان نعل ذلك فهو سلم لك ، ما استطيع غير ذلك . فامسكه فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت ، راجع تفسير ابن كثير ٤٨٦/٢ .

(٢) يقول تعالى : ﴿إِذْ أَرْحَمْنَا إِلَىٰ لَحْنِكَ مَا يُوحَىٰ (٢٥) أَنْ أَقْلَعِدْ فِي الْقَابِوتِ فَلْيَنْصِبْ فِيهِمْ لَقَدْ أَخَذْنَا لِيَوْمِ السَّاعِلِ . . (٣٧)﴾ [إله] .

والوارد الإلهي لا يجد له معارضة في النفس البشرية ، وقد أوحى الله ليوسف ما يُؤْتِسُ وحشته^(١) حين ألقاه إخوته في الجُبِّ الذي ابتعد فيه عن حنان أبيه وأتسه بأخيه ، ومفارقته لبلده التي درج^(٢) فيها وأُنس بالبيئة التي اعتاد عليها .

فكان لا بُدَّ أن تعطيه السماء دليلاً على أن ما حدث له ليس جَفْوَةً لك يا يوسف ؛ لكنه إعداد لك لتقابل أمراً أهم من الذي كنت فيه ؛ وأن غُرْمَاكَ - وهم إخوتك - سوف يُضْطَرُّون لنقِّ بابك ذات يوم يطلبون عَوْنَكَ ، ويطلبون منك أقواتهم ، وستعرفهم أنت دون أن يعرفوك .

هذا من جهة يوسف ؛ وجهة الجُبِّ الذي ألقوه فيه ، وبقي أن تعالج القصة أمر الإخوة مع الأب ، فيقول الحق سبحانه بعد ذلك :

وَجَاءَ آبَاَهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾

وهنا تتجلى لنا قدرة أدباء القرآن أداء دقيقاً معبراً عن الانفعالات التي توجد في النفس الإنسانية ، فها هم إخوة خدعوا آباهم ومكروا

(١) وما ورد في هذا ما نقله القرطبي في تفسيره (٣٤٦٥/٤) : « قال الضحاك : نزل جبريل عليه السلام على يوسف وهو في الجب فقال له : ألا أعلمك كلمات إذا أنت قلنهن عجل الله لك خروجك من هذا الجب ؟ فقال : نعم . فقال له : قل يا صانع كل مصنوع . ويا جابر كل كسير . ويا شاهد كل نجوى . ويا حاضر كل ملا . ويا مفرج كل كرب . ويا صاحب كل غريب . ويا مؤنس كل وحيد . لينتهي بالندرج والرجاء . واقذف رجاءك في قلبي حتى لا أرجو أحداً سواك .

فرددتها يوسف في ليلته مراراً ، فأخرجته الله في صبيحة يومه ذلك من الجب .

(٢) يقال الصبي إذا نَبَّ وأخذ في الحركة : درج . ودرج الشيخ والصبي يدرج فهو نارج : مشواً مشياً ضعيفاً ودنياً . [لسان العرب - مادة : درج] .

بأخيهم ، وأخذوه بالقوة في الحب مع أنهم يعلمون أن أباه يحبه ،
وكان ضئيلاً^(١) أن ياتمهم عليه ، فكيف يواجهون هذا الأب ؟

هذا هو الانفعال النفسى الذى لا تستطيع فطرة أن تثبته ؛ فقالوا :
نؤخر اللقاء لأبيننا إلى العشاء ؛ والعشاء محل الظلمة ، وهو ستر
للالنفعالات التى توجد على الوجوه من الاضطراب ؛ ومن مناقضة
كذب السنتهم ؛ لأنهم لن يخبروا الأب بالواقع الذى حدث ؛ بل بحديث
مُخْتَلَق^(٢) .

وقد تخدعهم حركاتهم ، ويفضحهم تلجلجهم ، وتتكشف سيماهم
الكاذبة أمام أبيهم ؛ فقالوا : الليل أخفى للوجه من النهار ، واستر
للفضائح ؛ وحين ندخل على أبينا عشاءً ؛ فلن تكشفنا انفعالاتنا .

وبذلك اختاروا الظرف الزمنى الذى يتوارون فيه من أحداثهم :

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ (١٧)

[يوسف]

والبكاء انفعال طبيعى غريزى غطرى ؛ ليس للإنسان فيه مجال
اختيار ؛ ومن يريد أن يفتعله فهو يتباكى ، بأن يفرك عينيه ، أو يأتى
ببعض ريقه ويقرّبه من عينيه ، ولا يستتر ذلك إلا أن يكون الضوء

(١) ضئلت بالشيء . أضمر : بخلت به ، وهو ضئيل به ، ورجل ضئيل : بخيل . والضئلة
والضن : الإمساك والبخل . وقال تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضِئِيلٍ ﴾ (٢٤) [التكوير] فهو
لا يكتم غيباً عن رسول الله ، بل يبخله كل ما أوحاه الله إليه من خبر السماء . [راجع لسان
العرب ، والقاموس اللغوي] .

(٢) خلق الكذب والإفك يخلقه ويخلفه واختلقه وافتراه : ابتدعه . الاختلاق : الكذب ، وهو انفعال
من الخلق والإبداع كأن الكاذب تخلق قوله . [لسان العرب - مادة : خلق]

خافقاً : لذلك جاءوا أباهم عشاء يُمَكُون البكاء^(١) .

والحق سبحانه حينما تكلم عن الخصائص التي أعطاهما لذاته ، ولم يُعْطِها لأحد من خلقه ؛ أعلمنا أنه سبحانه هو الذي يميت ويحيى ، وهو الذي يَضْحَك وَيُبْكِي .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤)﴾ [النجم]

ولا يوجد فَرْق بين ضحك أو بكاء إنسان إنجليزي وآخر عربي ؛ ولا يوجد فرق بين موت أو ميلاد إنسان صيني وآخر عربي أو فرنسي ؛ فهذه خصائص مشتركة بين كل البشر .

وإذا ما افعل الإنسان الضحك ؛ فهو يتضاحك ؛ وإذا ما افعل الإنسان البكاء فهو يتباكى ؛ أى : يفعل الضحك أو البكاء . والذي يقضح كل ذلك هو النهار .

والتاريخ يحمل لنا الكثير من الحكايات عن اتخاذ الليل كستار للمواقف ؛ والمثل فى سيدنا الحسين رضى الله عنه وأرضاه ؛ حين جاءت موقعة كربلاء ، ورأى العدو وقد أحاط به ؛ ورأى الناس وقد انفضوا عنه بعد أن دَعَوْهُ لِيُيَايِمُوهُ ، ولم يَبْقَ معه إلا قلة ؛ وعَزَّتْ عليه

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٢٤٦٩/٤) : « قال علياؤنا : هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله ، لاحتمال أن يكون تصنعاً ، فمن الخلق من يقدر على ذلك ، ومنهم من لا يقدر . وقد قيل : إن الدمع الممنوع لا يطفى ، كما قال حكيم :
إِذَا اشْتَبَكَتْ دُمُوعٌ فِي خُلُودٍ تَبَيَّنَ مَنْ يَبْكِي مِمَّنْ يَبْكَى » .

نفسه : وعزَّ عليه أن يقتل هؤلاء في معركة غير متكافئة صمم هو على دخولها .

فلما أقبل الليل دعا أصحابه وقال لهم :

« إن كنتم قد استحييتهم أن تفروا عني نهاراً ، فالليل جاء وقد ستركهم ، فمن شاء فليذهب واتركوني » ^(١) .

يقص الحق سبحانه ما بدر منهم فوراً أن دخلوا على أبيهم :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذُهِبْنَا سَتِيقٌ وَتَرَكْنَا يَوْسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾

صَادِقِينَ ﴿١٧﴾

كلمة : ﴿ نَسْتِيقُ .. ﴾ (١٧) [يوسف]

تعبر عن بيان تفوق ذات على ذات في حركة مسا : لنرى من

(١) ذكر ابن كثير في كتابه (البداية والنهاية ١٧٨/٨) أن الحسين بن علي رضي الله عنه قال لأصحابه : « من أحب أن ينصرف إلى أهله في ليالته هذه فقد أُنْتُت له فإن القوم إنما يريدونني ، هذا الليل قد غشيكم فانتفحوه حجلاً ، ليأخذ كل منكم بيد رجل من أهل بيتي ثم اذهبوا في بساط الأرض في سواء هذا الليل إلى بلادكم ومدائنكم فإن القوم إنما يريدونني ، فلو قد أصابوني لهرأ من طلب غيري ، فاذمروا حتى يفرج الله عز وجل » .

(٢) استيقا : تباريا ليسبق كل منهما الآخر . واستيقا الشيء : تباريا في الجري ثموه للوصول إليه . ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذُهِبْنَا سَتِيقٌ .. ﴾ (١٧) [يوسف] أي : نتبارى في الجري والسبق . ﴿ وَاسْتَيْقَا تَيْبًا .. ﴾ (٢٢) [يوسف] حاول كل منهما أن يصل إليه قبل الآخر . ويقول تعالى : ﴿ تَسْتَيْقُوا التَّيْبَاتِ .. ﴾ (البقرة) تباروا في الوصول إليها أو غلبها قبل غيركم . [القاموس اللويمي ٢٠٢/١] .

سيسبق الآخر ! فحين يتسابق اثنان في الجرى نرى مَنْ فيهما سبق الآخر ! وهذا هو الاستباق .

وقد يكون الاستباق في حركة بكّة ! كان يمسك إنسان ببندقية ويُصوِّبها إلى الهدف ! ويأتي آخر ويمسك ببندقية أخرى ويحاول أن يصيب الهدف ! وَمَنْ يسبق منهما في إصابة الهدف يكون هو المتفوق في هذا المجال .

وقد يكون الاستباق في الرمي بالسهم ! ونحن نعرف شكل السهم ! فهو عبارة عن عُصْنٍ مَرْنٍ ، يلتوى دون أن ينكسر ! ومثبت عليه وتر ، ويوضع السهم في منتصف الوتر ، ليشده الرامي فينطلق السهم إلى الهدف .

وتُقاس دقة إصابة الهدف حسب شدة السهم وقوة الرمي ، ويسمى ذلك «تحديد الهدف» .

أما إذا كان التسابق من ناحية طول المسافة التي يقطعها السهم ! فهذا لقياس قوة الرامي .

وهكذا نجد الاستباق له مجالات متعددة ! وكل ذلك حلال ! فهم أسباط وأولاد يعقوب ، ولا مانع أن يلعب الإنسان لعبة لا تُلْهِيه عن واجبه ! وقد تنفعه فيما يجد من أمور ! فإذا التقى بعدد تنفعه التدريب على استخدام السهم أو الرمح أو أداة قتال ! واللعب^(١) الذي لا ينهي عن طاعة ، وينفع وقت الجد هو لعب حلال .

(١) اللعب قد يكون مضموناً إذا لم يتعارض مع القيم الفاضلة . أما إذا كان اللعب قد يلحق الإنسان من الرغبات فهو مذموم . والله لا يكون إلا مضموناً .

وهناك ألعاب قد لا يدرك الناس لها غاية مثل كرة القدم .

وأقول : قد يوجد عدوان : وبينهما قنبلة موقوتة ؛ ويحاول كل طرف أن يبعدها عن مرقعه ، والقوة والحكمة تظهر في محاولة كل فريق في إبعاد الكرة عن مرماه .

ولكن لا بد ألا يُلهى لعب الكرة عن واجب : فمثلاً حين يؤذن المؤذن للصلاة ، الواجب علينا ألا نهمل الصلاة ونواصل اللعب ، وعلى اللاعبين أن يُراعوا عدم ارتداء ملابس تكشف عن عوراتهم .

وابناء يعقوب قالوا :

﴿ وَتَرَكْنَا يَوْسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ^(١٧) 》 [يوسف]

وفي هذا إخلال بشروط التعاقد مع الأب الذي أذن بخروج يوسف بعد أن قالوا :

﴿ أَرْسَلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَقِ وَيَلْعَبَ .. ^(١٨) 》 [يوسف]

وقالوا :

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ^(١٩) 》 [يوسف]

وقالوا :

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ^(٢٠) 》 [يوسف]

فهل أخذتموه معكم ليرتع ويلعب ، ويأكل من ثمار الأشجار والفاكهة ؛ وتحفظونه ، أم ليحفظ لكم متاعكم وأنتم تستبقون .

(١) المتاع : يطلق على الكثير والقليل باعتباره مصدراً ويجمع على أمثلة باعتبار ما ينتفع به وما يتمتع به . قال تعالى : ﴿ أَضَلَّ حِيلَةَ أَوْ مَتَاعٍ .. ^(٦٥) 》 [الرعد] أي : وصنع أشياء ينتفع بها . وقال تعالى : ﴿ وَذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْلِبُونَ عَنْ أَلْبَابِكُمْ وَأَنتُمْ تَحْجَمُونَ ^(٦٦) 》 [النساء] جمع متاع بمعنى أشياء ينتفع بها من طعام وأبواب للمروب ومال وغير ذلك . [القاموس التوحيدي] ٢١٠/٢ .